

السمو الأخلاقي والإنساني



لقد جعل الله الأخلاق في مكارمها العنوان الكبير للإسلام كله، لأن الإسلام في شريعته وفي كل مفاهيمه هو حركة أخلاق، وهذا ما عبّر عنه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، فكانت حركة النبوة، فيما أنزله الله تعالى عليها من وحي، كانت حركة أخلاقية تتسع لكل زمن بحاجاته الأخلاقية، وعندما يتطور الزمن بعد غياب نبي المرحلة، فإنّه يحتاج إلى أخلاق جديدة، وهكذا حتى بعث الله تعالى رسوله محمدًا (صلى الله عليه وآله وسلم) بالإسلام، ليكون الإسلام في شريعته ومنهجه الأخلاقي متممًا لما لمكارم الأخلاق. وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) النموذج الأكمل الذي يجسد الإنسان الذي تتجمع مكارم الأخلاق في وجوده وشخصيته وفي حركته بين الناس، ولذلك خاطبه الله تعالى في كتابه المجيد بقوله: (وَإِنَّ زَكَرِيَّا لَلْغَلِيُّ الْخَلِيُّ الْعَظِيمِ) (القلم/ 4)، حيث بلغ (صلى الله عليه وآله وسلم) في خلقه المستوى العظيم في كل صفاته المتمثلة في إنسانيته، وأراد للأمة أن تقتدي به، فخطبها بقوله تعالى: (لَقَدْ كُنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ فِي آيَاتٍ مُّبِينٍ) (الأنعام/ 1) (الأحزاب/ 21)، فهو القدوة، وعليكم أن تقتدوا به، فتأخذوا بسيرته وتفتحوا على أخلاقه. وقد عبّر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن هذا سمو الذي يريده الإسلام في أخلاقية الإنسان المسلم عندما يأخذ بمكارم الأخلاق: «أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»، أن تكون أخلاقك نابعة من إنسانيتك، لا من عملية رد الفعل، أو انطلاقًا من مبدأ التعويض.

وقد تحدث الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) عن بعض هذه الصفات التي يحييها أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في الإنسان المؤمن، على أساس أنّها تمثل مكارم الأخلاق، فقد حدث (عليه السلام) بعض أصحابه فقال: «إنما لنحب من كان عاقلًا - من يأخذ بأسباب العقل في كل ما يفكر فيه، وما يدخل إليه، وفي كل ما يتعامل معه؛ أن يكون الإنسان العاقل ولا يكون الإنسان الانفعالي الحاد الارتجالي، لأن الله تعالى أراد للإنسان أن يتحرك بعقله لا بانفعاله ولا بعاطفته - فهما - يتفهم الأمور من حوله ليعرف حقائقها ودقائقها - فقيهاً - متفقههاً في دينه - حليماً - واسع الصدر، بحيث يتسع للناس كافة، لمن أساء إليه، ولمن أحسن إليه - صبوراً - إذا واجهته المصائب وأحاطت به المشاكل، فإنّها لا تسقطه، ولا تؤدّي به إلى الجزع، بل إنّه يتماسك في هذه الحالة، ويصبر ريثما تزول المصيبة ويفكّر في حلول المشاكل التي تطبق عليه - صدوقاً - يصدق في كلامه وفي مشاعره وفي مواقفه،

فلا يكون من الكاذبين - وفيّاً - يفي للناس بما وعدهم به وبما عاهدتهم عليه - إنّ اﷺ عزّ وجلّ خصّ الأنبياء بمكارم الأخلاق، فمن كانت فيه فليحمد اﷺ على ذلك - لأنّها نعمة كبيرة أنعم اﷺ بها عليه في بناء وجوده على أساس المنهج الأخلاقي - ومَن لم تكن فيه فليتضرّع إلى اﷺ عزّ وجلّ وليسأله إيّاها، فمن لم يتربّ - تربية أخلاقية على أساس مكارم الأخلاق، فليعتبر ذلك بلاءً ابتلاه اﷺ به ومشكلةً عاشها، فعليه أن يبدأ بالابتغال إلى اﷺ ليوفّقه للحصول على ذلك، فقال صاحب الإمام الصادق (عليه السلام): «جُعلت فداك، وما هنّ؟» قال (عليه السلام): «الورع، والقناعة، والصبر، والشُّكر، والحلم، والحياء، والسخاء، والشجاعة، والغيرة - أن يكون غيوراً على ما ينبغي للإنسان أن يغار عليه في عرضه وكلّ أُمره - والبرّ، وصدق الحديث، وأداء الأمانة».

هذه هي خصال الأئمّة من أهل البيت (عليهم السلام)، وهي خصال رسول اﷺ (صلى اﷺ عليه وآله وسلم) وخصال القرآن، فعلينا أن نتأدّب بآداب الإسلام، حتى نقرب إلى اﷺ عزّ وجلّ، وحتى نعيش في مجتمعاتنا كما يحبّ اﷺ تعالى ويرضى. فالخصال الإيمانية ترفع بالإنسان المؤمن وتجعل منه قدوة يُحتذى بها، وبالتالي تكون صفة المجتمع هي الرفعة الأخلاقية التي من خلالها يستطيع المجتمع ينهض ويكون صاحب حضارة وأخلاق تسمو وتعلو بنا على مستوى العالم.